

بسم الله الرحمن الرحيم

الإصلاح الديني في فكر الشيخ عدون

(من خلال كتابته الصحفية)

إعداد: صالح محمد حمدي

مقدمة:

كنت أعرف الشيخ سعيد بن بالحاج شريقي؛ الشيخ عدون -رحمه الله- في أواخر حياته - كما يعرفه الكثير من أمثالي الشباب- أنه من رجال الميدان في مجال التعليم والنشاط الاجتماعي، إذ لا يخفى على أحد منا جهاده الطويل وجولاته السنوية مثلا، في مدن القطر الجزائري لجمع التبرعات والاشتراكات الخيرية في سبيل تمويل مدرسة الحياة بفروعها ومعهد الحياة الشرعي بالقرارة.

إلى أن يسّر الله تعالى لي منذ بضعة أشهر الاطلاع على عدد من المقالات التي كان يرصّع بها الشيخ صحف أبي اليقظان -رحمه الله- فانبهرت بفكر الرجل ومنهجه وأسلوبه، وازددت يقيناً أنه لم يكن إنساناً عادياً، بل عاش حياته مصلحاً ربّانياً، ومفكراً أدبياً، تمكّن من الجمع بين النشاط الاجتماعي الميداني والإبداع الفكري الأدبي؛ خصوصاً في زهرة شبابه، لهذا السبب تحفزت لكتابة هذه الأسطر محاولاً الإجابة عن إشكاليتين أساسيتين:

أولاهما: لماذا اهتم الشيخ عدون بالكتابة الصحفية في الإصلاح الديني؟

ثانيهما: ما هي أهم الموضوعات الدينية التي كان يعالجها الشيخ؟

أولاً: اهتمام الشيخ عدون بالكتابة الصحفية في الإصلاح الديني

يعتبر الشيخ عدون رائداً من رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر، حيث كان العضد الأيمن للإمام إبراهيم بيوض في جهاده، تشبّع بروح الإصلاح وآمن برسالته نحو دينه وأمته، واستطاع -بما حباه الله من مواهب- أن يؤدي عمله الدعوي ورسالته الإصلاحية عبر الجمع بين قناتين هامتين في كل مجتمع، هما: قناة التربية والتعليم، وقناة الكتابة الصحفية أو الإعلامية.

وإذا كان هدف الشيخ من القناة الأولى تنشئة الناشئة على العقيدة الصحيحة والخلق القويم، ومواكبة العصر في علومه، فإن غرضه من القناة الثانية -أي الكتابة الصحفية- هو "إبلاغ فكرته ومبادئه السامية إلى الآفاق [إذلم] يقنع بما تتلقفه الأذان من منابر التبليغ في ميزاب، فكان من الكتاب الأوائل الذين أثروا الصحافة الوطنية بكتاباتهم الثمينة، وصحافة الشيخ أبي اليقظان بوجه خاص"¹.

آمن الشيخ عدون بالدور الفعال للكتابة الصحفية في تغيير ما بالنفوس من أمراض أولاً، ومن ثمّ إصلاح ما بالمجتمع من علل وآفات، منطلقاً من مبادئ الإسلام عقيدةً وشريعةً، ومنبعه الصافي قرآناً وسنةً، ومسائراً في ذلك خط الحركة الإصلاحية في الجزائر والعالم الإسلامي، التي كانت تسعى إلى الإصلاح الداخلي أولاً، "وهي وإن رأت هذه النظرة، فإن ذلك منها لم يكن استبعاداً للواقع الاستعماري بقدر ما هو تمثل له ووعي بطبيعته، فقد أدرك رجال الإصلاح تمام الإدراك بأن التحرر من الاستعمار... إنما يجب أن يبدأ من تحرر النفوس من ذلّ التبعية والتقليد، وأن الشعور بالمميزات الشخصية هي التي تحفظ للشعب ذاتيته فيضحّي بالتالي في سبيل الحفاظ عليها والدفاع عنها بكل ما يملكه من نفس ونفيس"².

1- محمد أحمد جهلان: الشيخ عدون والكتابة الصحفية (مدخل إلى مقالاته في صحف الشيخ أبي اليقظان من 1926 إلى 1938)، دورية الحياة العدد التاسع، نشر جمعية التراث، القرارة - غرداية- الجزائر، 1426هـ/2005م، ص 148.

2- محمد صالح ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر، 1980، ص 39.

وقد وجدنا إمامنا عدون من أبرز الكُتّاب في جرائد الشيخ أبي اليقظان؛ التي كان يصدرها -
رحمه الله- بين سنة 1926 م وسنة 1938 م، وهي:

(1) جريدة وادي ميزاب: 1926 - 1929م.

(2) جريدة المغرب: 1930 - 1931م.

(3) جريدة النور: 1931 - 1933م.

(4) جريدة النبراس: 1933م.

(5) جريدة الأمة: 1933 - 1938 م.

ولم يُعثر للشيخ - حسب دراسة للأستاذ محمد جهلان- على مقالات في الصحف الثلاثة المتبقية
وهي: ميزاب (1930 م)، البستان (1933 م)، الفرقان (1938 م)¹.

وسبب اهتمام الشيخ بالإصلاح الديني أساسًا في فكره وكتاباتهِ؛ إيمانه العميق أن الدين حجر
الزاوية في الحياة، والغاية من الإصلاح تحقيق الإنسان سعادة الدارين؛ والتي لا تنال إلا باتباع تعاليم
هذا الدين الحنيف وإسلام العبودية لله وحده.

يقول الشيخ في هذا الشأن سنة 1936: " إن الأمة الجزائرية المغلوبة على أمرها؛ المبتلاة بأنواع
الشروع، في حاجة شديدة إلى الإصلاح في جميع نواحي حياتها، من دينية واجتماعية وسياسية
واقصادية ... ولما كانت الغاية من هذا الإصلاح هي الإحراز على السعادة في الحال والمآل، وكانت
هذه السعادة لا تنال إلا بسلوك طريق الدين الحنيف الذي شرعه الله لإسعاد البشر في دنياهم
وأخراهم؛ وجب أن يكون الدين أساسا لكل إصلاح، مسيرا لكل حركة، متناولا لكل شأن من

1- محمد أحمد جهلان: المرجع السابق، ص 160.

شؤون حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، فكل إصلاح لا ينبني على هذا الأساس وجب أن يُرفض، وكل حركة لا يبعثها وازع الدين وجب أن تُرصد¹.

ويتأمل الشيخ في واقع أمتة إذ ذاك؛ فتستفزّه حركات تدّعي الإصلاح في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع، لكنها تحمل على التشاؤم أكثر مما تحمل على التفاؤل، ويُتوقّع منها الإخفاق أكثر من النجاح، والسبب لديه واضح هو عدم تأسيسها على الدين، والقائمون عليها ليس لهم من الإسلام إلا اسمه، ومن سقط في أسرِ نفسه الأمانة بالسوء وعجز عن إصلاحها، كان عن إصلاح غيره أعجز، وأضحى مصيدة لكل غاشم يستعبده².

ومن ثمّ كان لزاماً على كل داعية ومصلح لغيره، أن يقدم القدوة الحسنة من نفسه أولاً: عقيدة ومبدأً، سلوكاً وخُلُقاً، تأسّيًا بالمصلح الأول حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21].

ثانياً: أهم الموضوعات الدينية التي كان يعالجها الشيخ عدون في كتابته الصحفية

من خلال اطلاعي البسيط على عدد من مقالات الشيخ في الصحف اليقظانية - والتي تجاوزت المائة³ - قسّمت الموضوعات التي تناولها إلى محورين أراهما جُلّ اهتمام الشيخ في الإصلاح الديني وهما:

1. تغيير الأفكار وتصحيح المعتقدات.

2. تقويم الأخلاق والسلوك.

¹ - الشيخ عدون: مقال "يجب أن يكون الدين أساس كل إصلاح"، جريدة الأمة، عدد 103، 14 شوال 1355هـ / 29 ديسمبر 1936م.

² - المصدر السابق نفسه.

³ - محمد أحمد جهلان: مرجع سابق، ص 149.

المحور الأول: تغيير الأفكار وتصحيح المعتقدات.

الإنسان كائن مفكر، بعقله الذي وهبه الله يعيش إنسانيته ويسمو بروحه إلى الآفاق ويصنع بيده المعجزات، وابتاع سنن ربه تطيب له دنياه ويسعد في أخراه، وكل آفة أو شقاء يلحقه مردّه حيدة عن دين ربّه، أو تعطيل لوظيفة عقله، هذا القانون الكوني هو ما كان يؤمن به ويسعى من أجله حمّلة الدعوة في تاريخهم الحافل، وما كان الشيخ عدون بدعًا من هؤلاء في نهجهم، فقد كتب مقالات عدة يبين فيها أن الضعف والانحطاط اللذين أصابا أمته في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الغابر؛ سببه الأصلي إما جمود وحوّر في التفكير، وإما زيغ وضعف في العقيدة.

فمن ضعف الإيمان بالله وأثره الخطير في واقع الحياة ذكر الشيخ أنّ " أكثر الباحثين في أسباب ضعفنا وانحطاطنا يقصرون في أبحاثهم على الأسباب المباشرة، فتراهم يعزّون ضعفنا إلى الجهل الذي نتخبّط في دياجيّره، وإلى الفقر الذي نزل بنا فمنعنا التحرك، وإلى التفرّق الذي شتت شمل الأمة وأذاب ذاتيتها ... وقلّ من تجده منهم يتعرض للبحث في السبب الأصلي المنتج لهذه العلة الموجبة لانحطاطنا مباشرة، ذلك الداء الذي هو مصدر جميع الأمراض التي نترنّ ونشكو منها، هو الداء الرئيسي الوحيد، إن استطعنا معالجته توصلنا إلى معالجة كل داءٍ بعده بكل سهولة، وإن عجزنا عنه كنا مع غيره أعجز، ذلك هو ضعف الإيمان بالله"¹.

ويأخذ الشيخ بعد ذلك في تعداد جملة من الآثار الوخيمة المترتبة عن قلة الإيمان أو فقدانه أساساً، فضعف الإيمان يُفقد الإنسان أكبر حافز لاقتحام المصاعب والمخاطر - وهو الرجاء في ثواب الله - فيهمل بالتالي فرائضه وواجباته، كما يزيل عنه هذا الضعف أكبر زاجر يزجره عن الانحراف - وهو الخوف من عذاب الله - فينغمس في حمأة المعاصي والرذائل. وضعف الإيمان يذيب من قلب

¹ - الشيخ عدون: مقال "ضعف الإيمان بالله إنما هو أصل كل علة ..." حلقة 1، جريدة النور، عدد 67، 11 شوال 1351هـ / 07 فيفري 1933م.

المرء الثقة بربه الذي وعده النصر إن نصره، والهداية إلى سبيله إن جاهد فيه، والإخلاف إذا أنفق مالاً في سبيله، ونتيجة فقدان المسلم الثقة بمولاه: فُتور همته وتمكُن اليأس منه، وخلوده إلى الراحة والسكون، وتقاعسه عن العمل والجهاد، إلى غير ذلك من عواقب خفة الإيمان التي استفاض الشيخ في تفصيلها¹.

والمجتمع الإسلامي إلى اليوم يتجرّع عُصص ذلك الضعف الإيمانى - إلا من رحم الله - إذ غدت ظواهر الإجرام والانتحار - مثلاً - أخباراً عادية تتصدّر أعمدة الصحف اليومية في جزائرتنا الحبيبة، حيث أُحصي في ولاية واحدة من ولاياتها سبع وخمسون (57) حالة انتحار خلال السداسي الأول فقط من سنة 2007م، ونجد الضغوط الاجتماعية غالباً، مع البطالة عن الشغل؛ وراء تلك الأحداث² ... نعم لعلها ضريبة غالية لأفول الإيمان وفراغه من القلوب.

ويحتم الشيخ عدون مقالته السابقة بحث أفراد الأمة على صرف اهتمامهم إلى تنبيه قوة الإيمان في نفوسهم أولاً، ثم الدعوة إليها في المجالس والنوادي، وفي كتابات الكُتاب ومؤلفاتهم، لكنّه ركّز أكثر على إنشاء الناشئة بصيغة العقيدة السليمة " حتى يشبُّوا وقد أشبعت نفوسهم بها وأُشربت بحبّها، فإذا عَزَّزت بالعلم الصحيح خرجوا إلى المعترك الحيوي بأقوى سلاح، فلا يجدون أمامهم صعوبة إذا نزلوه، ولا يخافون بخسًا ولا رهفًا"³.

والآفة الأخرى التي كان الشيخ يشهر قلمه لمواجهتها وعلاجها هي آفة الجمود الفكري، التي ابتلي بها كثير من الجزائريين إذ ذاك في ميزاب وخارج ميزاب، ومسائرا في ذلك شيخه أبي اليقظان)

¹ - المصدر السابق نفسه.

² - صالح محمد حمدي: مقال نشره في موقع فييكوس www.veecos.net، بعنوان: " مثال رائع للانتصار على النفس "، جويلية 2007م.

³ - الشيخ عدون: مقال "ضعف الإيمان بالله إنما هو أصل كل علة ... " حلقة 2، جريدة النور، عدد 68، 14 فيفري

1933م.

رائد الصحافة الوطنية) الذي ابْتُلِيَ بهؤلاء المتزمتين " وأوذي من طرفهم قولاً وفعلاً غير ما مرة، تكفي تلك الحَمَلات التي شتّوها ضدّه يوم كان يناضل بشرف في سبيل أول بعثة علمية جزائرية بتونس، ويكفي أيضاً أنهم كانوا يؤلّبون الرأي العام ضدّ صحافته، ويستثيرون السلطة الاستعمارية ضدّها، مما كان له أثر مباشر في مصادرة العديد منها "1 .

ويُفهم من كتابة الشيخ عدون في الموضوع أن أصعب آفة في التحليل وأعقدها على العلاج هي مشكلة الجمود في التفكير، لأن من لم تنفعه الآيات والتُّنذُر ولم تبصِّره تقلبات الدَّهر بمرضه، فلا يجديه علاج بعد ذلك².

يقول الشيخ في بيان غرضه من من تناول هذا الموضوع - رغم وعورة مسلكه - : " إنما غرضنا أن نكتب عن غريب في هذا العصر، وعن أثر هذا الداء في الهيئة الاجتماعية، وأن نحوط المصابين به بسياج من التَّحذير حتى لا يعدوا غيرهم بعلّتهم الفتَّاكة، تاركين هؤلاء وما اختاروه من سجن مؤبَّد سجنوا فيه أنفسهم طول حياتهم "3.

ويعتبر الشيخ ضررَ الجامدين على الدين لا يقل عن ضرر أعدائه المتربصين به الدَّوائر ، الذين يحوّلون أبناء المتعنتين فيه؛ سلاحاً قوياً لهدم دعائمه " إذ يتخذون ما يرونهم عليه وما يتلقون منهم من السخافات والخرافات حُجَّةً على قصوره، وعدم مماشاته للمدنية الصحيحة ومساعدته على تقدم العمران، وهم الواقفون في سبيل كل نهضة إصلاحية يقوم بها العاملون، والهادمون لكل مشروع بينيه المصلحون "4.

1- محمد صالح ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 84.

2- الشيخ عدون: مقال " الجمود، وكيف يجب على الأمة الاتقاء منه "، جريدة النور، عدد 46، 16 ماي 1932م.

3- المصدر السابق نفسه.

4- المصدر السابق نفسه.

فإذا كان التمسح بالقبور والتبرك بزيارة الأضرحة - من قبل بعض المسلمين مثلاً - من البدع التي غداها الاستعمار في ذاك الزمان، فإن التاريخ يعيد نفسه اليوم في صور جديدة من الجمود، فكل حركة إسلامية اتخذت الغلو والتطرف منهجاً لها إلا وحسبت على الإسلام ورؤمي أهله جملةً بالإرهاب، وتعت دينهم بالعنف والتخلف من قبل القوى المسيطرة على الإعلام الغربي، فكان هؤلاء وهؤلاء مشتركين جميعاً في جريمة صدّ الناس عن دين الله ورحمة الإسلام.

وللشيخ مقال مطوّل حول ضرورة الإصلاح الديني في عصر الضعف والتخلف الذي أحاط بالمسلمين من كل جانب، وفيه ردود نارية ضد الجامدين على ميراث الآباء والأجداد، المناوئين لحركة الإصلاح في الجنوب الجزائري، حلّ في هذا المقال - المتسلسل في 4 حلقات - تحليلاً شافياً لأسباب التخلّف الحضاري، والدعاوى الواهية التي يستمسك بها المتزمتون، ثم الردّ عليها بالحجة الدامغة والأسلوب البليغ.

من بين ردوده عليهم؛ رده على قضية اليأس من عودة الناس إلى شريعة ربهم بعد استفحال الفساد، ومن ثمّ خذلان الحق والسكوت عن المنكر، وهي الفكرة المحبطة التي تنتاب كثيراً من المسلمين في عالم اليوم، ينقل الشيخ هذه الدعوى قائلاً: " يقولون: إن الإسلام قد أفل نجمه وأدبرت أيامه، وزهد فيه أهله وانتهكوا حُرّماته، فلا رجاء في إصلاح ما أفسدوه، ولا أمل في إرجاع الصادين عنه إلى حظيرته، ولا مطمع في إعادة ما كان له في سالف عهده من مجد وسيادة ونفوذ، فكل سعي في هذا السبيل لا يُثمر سوى الخيبة والإخفاق "¹.

¹ - الشيخ عدون : مقال " إذا لم يكن الإصلاح لدفع الفساد فمتى يكون ؟ ولماذا يجب إذا ؟ " حلقة 1، جريدة النور، عدد 61، الثلاثاء 14 شعبان 1351هـ / 13 ديسمبر 1932م.

ونسِي هؤلاء أو تناسوا سنن الله الكونية، من بينها أنه تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، يرّد الشيخ عدون على الدعوى السالفة بأسلوب الخطاب والجدال: " نقول لهم: إن ما تصفون من حالة الإسلام لا ينازعكم فيه منازع، ولكن ما بلغ إلى هذا الحدّ إلا لما انتشرت بين أممه أمثال هذه النظريات التي تدل على مبلغ عقول أصحابها، ومقدار ما لهم من بساطة في الإدراك، وقصور في الاستنتاج، والتي كانت سببا في بقائنا على ما نحن فيه اليوم من فسادٍ وتأخّر"¹.

ثم يخاطب هؤلاء القوم بأسلوب الاستفهام الذي غرضه التقرّيع والإنكار: " هل جاءكم براءة من ربكم في عصركم هذا، تسقط عنكم ما أوجبه على رسوله وعلى المؤمنين من نشر الدين وإقامة شعائره، والضرب على كل يد تريدها بسوء؟ في أيّ كتاب أم في أيّ سنّة عثرتم على حدّ محدود للفساد؛ إذا بلغ إليه سقط واجب الإصلاح في كل شيء يتعلّق به، أو بعبارة أصحّ: فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومتى استعصى مثال على من توجّه إليه بإخلاص وعزيمة صادقة وصبر وثبات ؟ "².

إذن إخلاص النية وصدق العزيمة والتحلّي بالصبر، هي الشروط المفتاحية التي يولج بها معترك إصلاح النفوس وتغيير المنكرات، والتمكين لدين الله في أرضه، وهي ما ينقص بعض العاملين للإسلام في زماننا الصعب.

هذا ولم يغفل الشيخ بأن يستشهد لمبدئه ذاك - الذي آمن به وتغلغل في وجدانه - بالاعتبار من حوادث التاريخ، والتأمل في نواميس الله تعالى الكونية أو الشرعية سواءً بسواء؛ والتي تنضح بها آياته في القرآن الكريم، يقول الإمام عدون: " وتاريخ الأفراد والجماعات ينبئنا بأن كل من جدّ وجد، ومن زرع حصداً، ومن سار على الدرب وصل، وما قويّ من قويّ إلاّ وقد كان ضعيفاً، فلما تعاطى

¹ - المصدر السابق نفسه.

² - المصدر السابق نفسه.

أسباب القوة انقادت إليه صاغرةً، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [سورة محمد: 08]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69] ... أترون الله مخلف وعده أو مبدل سنته في خلقه؟ كلا، فبقاؤنا على ما نحن فيه من ضعف دليل قاطع على انحرافنا عن الجادة، وتنگبنا عن سنة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]

1.

ومن الموضوعات التي أولها الشيخ عناية كبيرة في باب تغيير المنكرات وتصحيح المعتقدات، موضوع أهمية العلم والتعليم، وخطر الأمية والجهل على حياة الفرد والأمة، وإذا كان الهمم العدوي الذي عاش من أجله: تربية الناشئة والشباب بتأسيس المدارس والمعاهد الشرعية رفقة زميل دربه الشيخ بيوض - رحمه الله - الذي أيقن " أن مصدر النفور من النهضة والإصلاح والتطوير هو هذا الجهل والأمية في الدين والحياة، وعلم أن الصراع الذي استعر أواره واشتد لهيبه كان بين عقل متنور بنور العلم، وفكر أعماه ظلام الجهل "2.

فإن الشيخ عدون قد أرقه هذا الموضوع أيضا في الكتابة الصحفية، إذ اعتبر أن نواحي الإصلاح التي لا تستقيم حياة الأمة إلا بترميمها (وهي الاقتصاد والاجتماع والسياسة)، لا يمكن بعثها من جديد وإعادة سيادتها وعزها " إلا بقوتين أساسيتين عظيمتين لا ثالثة لهما، هما عماد كل إصلاح وأساس كل نهضة: العلم الصحيح والخلق المتين، فمن توفرت لديه هاتان القوتان فقد سُقيت له السعادة بحذاقها، ونال أقصى غاية يتوخاها، هما قوتان عتيدتان بعيدتا المنال لا يمكن الحصول عليهما إلا بتضحيات غالية؛ تضطلع بأعبائها هيئات مؤسسة وجماعات منظمة، تتكافل فيها القوى

1- المصدر السابق نفسه.

2- محمد ناصر بوحجام: منهج الشيخ بيوض رحمه الله في الإصلاح والدعوة، ط1، نشر جمعية التراث، 1429هـ / 2008م، ص 184.

وتتحد المقاصد، أما الأعمال الفردية إذا توزعت فإنها مهما اشتدت وقويت؛ قصيرة المدى عرضة للطوارئ، ... فلا اعتماد عليها في نَهضة، ولا ترجى حياة صحيحة من ناحيتها"¹.

يرمي الشيخ من خلال تلك الفقرة إلى نقطتين: أولاهما بيان أهمية العلم إلى جانب الخلق في نهضة الأمم، ثانيهما دعوته إلى أن تضطلع بهذه المهمة مؤسسات قائمة على قوة التخطيط وقوة المال وينتظم سيرها روح العمل الجماعي، لأن العمل الفردي في مجال التعليم المعاصر لا يجدي نفعاً ولا يثبت أمام التحدّيات الجمة، وهو ما جسده الشيخ فعلاً في هذا المعهد الشامخ العتيد معهد الحياة، وسائر مدارس التعليم القرآني الحرّ؛ التي هي بمثابة مؤسسات منظمة، قائمة على جهود وتضحيات جماعية: إدارةً وتخطيطاً وتمويلاً، نرجو لها التطور أكثر لتواكب الركب الحضاري.

كما لم يهمل عدّون دور الصحافة في نشر العلم، وتنوير عقول الأمة جمعاء، وتقويم الأفكار وتبديد أوهام الجهل العالقة بالنفوس، فبمناسبة دخول جريدة الأمة للشيخ أبي اليقظان سنتها الثالثة، وبلوغها العدد الأول بعد المائة في نهاية سنة 1936م، كتب الشيخ عدون مقالا بعنوان: " اعترافٌ بالجميل للأمة بمناسبة دخولها في السنة الثالثة " جاء فيه:

" تلك - أيها القارئ الكريم - هي " الأمة " ... تغذي بها عقلك وتؤنس بها وحشتك وتزيل بها حيرتك وتنير بها طريقك وتحاضر بها مجالسيك ... فكم أرشدت من عقول وهذّبت من نفوس، وأزالت من أسقام وبددت من أوهام، وكم سقت من مُلْتَجٍ إلى مستوصفها مستشفياً -عسلا مصقّى فيه شفاء لما في الصدور "².

¹ - الشيخ عدون: مقال " كيف يكون الإصلاح وما هي وسائله؟ " جريدة النور، عدد 65، الثلاثاء 20 رمضان 1351هـ / 17 جانفي 1933م.

² - الشيخ عدون : مقال " اعتراف بالجميل للأمة بمناسبة دخولها في السنة الثالثة "، جريدة الأمة، عدد 101، الثلاثاء 23 رمضان 1355هـ / 08 ديسمبر 1936م.

المحور الثاني: تقويم الأخلاق والسلوك .

الدَّعامة الثانية لأَيِّ حضارة هي دُعامة الأخلاق المتينة والآداب الرفيعة، التي ما بُعث الأنبياء والرسل إلا من أجل تثبيتها وإشاعتها، {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق} كما أخبر عن مهمته تلك؛ سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

والخلق الجوهري الذي عُرف به الشيخ عدون - رحمه الله - : الإخلاص ونكران الذات، أو التضحية في سبيل الله وحده، جسدها بحاله وسلوكه، قبل مواعظه ومُدَوّناته، يقول أحد تلامذته المبرزين - وهو الدكتور محمد ناصر - عن إخلاص شيخه: " إن هذه الصفة في حدّ ذاتها هي مفتاح شخصيته ونواة نفسه وحبّة قلبه، عليها تدور كل صفاته المتجلية الأخرى، ومنها تستمد إشعاع الورع والتقوى، فتضيء كل جوانب نفسه، وتُشيع هالاتٍ نورانية من حوله، فتُحبّبه إلى قلوب الناس ... حتى قال فيه المرحوم شيخنا بكلي عبد الرحمن قولته الحكيمة: (إنه الإخلاص يمشي على رجلين) "1.

وجُلُّ المقالات العدونية تُبدئ وتُعيد في حُلّة الإخلاص، إلا أنه خصّص لها حلقتين كاملتين في جريدة النور بمقال سمّاه: (إنكار الذات في سبيل المصلحة العامة)²، بيّن فيه ضرورة التحلّي بهذا الخلق على كل مؤمن يبتغي خدمة المصلحة العامة للدين والوطن، كما وضّح ثمار التضحية على الأمة بانتشار الصّلاح والإصلاح، وعلى الفرد بتحمّله لكل مكروه، وصبره على كل أذى يلحقه في سبيل الله، كل هذه المعاني سببها الشيخ سببًا قويًّا في قالب أدبي رفيع، وعبارات ساحرة، تأسر الألباب وتَهزّ النفوس.

¹ - محمد صالح ناصر: مشايخي كما عرفتهم، ط1: دار الرّيام، الجزائر، 1429 هـ / 2008م، ص 310-311.

² - الشيخ عدون: مقال " إنكار الذات في سبيل المصلحة العامة " حلقة 1، جريدة النور، عدد 35، د.ت.

يقول الشيخ بعد أن يعترف لأيّ امرئٍ بقيمة شخصيته: " غير أنّ هذه الذاتية التي يجب أن نُجَلَّ ومُحْتَرَم ... لا تؤدّي وظيفتها هذه ولا تؤتي ثمرتها حتى تتضاءل وتتصاغر، وتدوب حقارةً وانكسارًا، إذا وقفت إزاء المصلحة العامة.

لا يحتلّ عظيمٌ منزلةً يتبوّأها في النفوس فتمنح له لقب العظيم باستحقاق، إلا إذا كان جسراً مُتَمَدًّا تمرُّ عليه المصلحة العامة، يتنازل في سبيلها عن كل ما يملك؛ من مال وجاه وعرض ونفسٍ إلا ما يمس الشرف"¹.

أما ما يتّصل بسلوك المسلم الاقتصادي ومعاملاته المالية، فقد كتب الشيخ عدون في آفة الربا التي وقع في حماها كثير من التجار في الثلاثينيات من القرن الماضي، مُشهرًا قلمه ضدّها وضد المتعاملين بها، إشفاقاً منه على عواقبهم المادّية وسوء مصائرهم في الآخرة.

قال الشيخ في آثار الربا؛ الملموسة في دنيا الناس وفي عالم التجارة والمال: " إن جريمة يشدد الله هذا التشديد على مرتكبيها ثم تصبح مباحة الإباحة المطلقة لدى الأمم ولدى الأفراد، بل تصبح عندهم في حكم الضرورات التي لا محيد عنها؛ لجدير أن يصبّب الله على متعاطيها سوط عذابه، فينالون ما يستحقون من صارم العقاب ... تنزل علينا النكبات تترى، ونرى بأعيننا كيف تفتك هذه الآفة المبيدة بالأمم والأفراد، وكيف تهلك الحرث والنسل فلا نعتبر ولا ندكر ولا نتعظ ولا نزدجر، ليست الحرب الكبرى [أي العالمية الأولى 1914-1918م] - التي لم يزو لنا التاريخ أعظم منها هولاً وأفظع فتكاً- إلا حريقاً عامًا شبّ في أرجاء المعمورة؛ عُود ثقابه آفة الربا"².

¹ - المصدر السابق نفسه.

² - الشيخ عدون: مقال " هذه مقدمة الحرب تفتك بنا، فهل آن لنا أن نزدجر ونرعوي؟ " جريدة النور، عدد 26، الثلاثاء 14 ذي القعدة 1350هـ / 22 مارس 1932م.

بعد هذا التحليل للآثار العالمية التي خلفها شبح الربا المحرّم، يوجّه الشيخ قُراءه إلى النظر نظرة اعتبار في حال مجتمعهم المحلي، وفي مصير التجار الذين تفتّشت فيهم تلك الموبقة، وذلك إثر الأزمة المالية العالمية سنة 1929م، كيف أن الله تعالى عاقبهم " بآفات متنوعة ... فكان الكساد في التجارة عامًا، وبسقوط قيمة السلع فكانت الخسائر فادحة، وبتوقف مدينيهم عن تسديد ما عليهم من الديون المتراكمة، فذهبت أموالهم ضحية الطمع وسوء التصرف، وبقيام الغرماء عليهم ومضايقتهم في الاقتضاء، وبتفليسهم وحجز ممتلكاتهم وبيعها"¹، إلى غير ذلك من مهالك الربا التي استفاض فيها الشيخ تعدادًا وتحليلًا، حتى يزدجر من انغمس فيها، ويكون عبرةً لغيره.

وهاهو التاريخ يعيد نفسه في أزمة مالية أخرى، يتخبّط منها العالم بأسره هذه السنة 2009م، إذ تُطلّنا نشرات الأخبار الاقتصادية يومياً على المزيد من انهيار البورصات المالية، وسقوط قيمة العُمُلات وأسهم كبرى الشركات العالمية، وخصوصاً تلك المنتجة للسيارات؛ التي تعلن إفلاسها الواحدة تلو الأخرى، وما هذه الأزمة إلا هيب حرب إلهية اسمها: (الحرب على الربا)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (278) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿279﴾ [سورة البقرة].

الخاتمة:

هذا غيض من فيض مما كتبه فضيلة الشيخ عدون رحمه الله من دُرر الحِكم والتّجارب، وذلك من خلال كتابته الصحفية، التي لا يمكن أن تفني بحقّها هذه الأسطر القليلة ولا تلك الخواطر الأولية، وحسبي من هذه المحاولة أن أهدي الباحثين إلى التعمق في دراسة فكر الشيخ ومنهجه في الدعوة والإصلاح التربوي والاجتماعي، وكذا البحث في أسلوبه الأدبي وبلاغته التي لا تزال مغمورة ومجهولة لدى الكثير من شباب هذا العصر ومثقفيه، فيفيدوا من حكمته وتجربته الرائدة في ميادين التعليم

¹ - المصدر السابق نفسه.

وقيادة المجتمع؛ في زمن الغربية التي يعيشها الدين والهجران الذي يشكوه القرآن، عسى الله تعالى أن يجعل منهم خير خلف لخير سلف.

والحمد لله رب العالمين.

السبت 15 ربيع الثاني 1430 هـ / 11 أبريل 2009 م.

قائمة المصادر والمراجع:

¹- مقالات الشيخ عدون - رحمه الله - :

- "يجب أن يكون الدين أساس كل إصلاح"، جريدة الأمة، عدد 103، 14 شوال 1355 هـ / 29 ديسمبر 1936 م.
- "ضعف الإيمان بالله إنما هو أصل كل علة..." حلقة 1، جريدة النور، عدد 67، 11 شوال 1351 هـ / 07 فيفري 1933 م.
- "ضعف الإيمان بالله إنما هو أصل كل علة..." حلقة 2، جريدة النور، عدد 68، 14 فيفري 1933 م.
- "الجمود، وكيف يجب على الأمة الاتقاء منه"، جريدة النور، عدد 46، 16 ماي 1932 م.
- "إذا لم يكن الإصلاح لدفع الفساد فمتى يكون؟ ولماذا يجب إذا؟" حلقة 1، جريدة النور، عدد 61، الثلاثاء 14 شعبان 1351 هـ / 13 ديسمبر 1932 م.
- "كيف يكون الإصلاح وما هي وسائله؟" جريدة النور، عدد 65، الثلاثاء 20 رمضان 1351 هـ / 17 جانفي 1933 م.
- "اعتراف بالجميل للأمة بمناسبة دخولها في السنة الثالثة"، جريدة الأمة، عدد 101، الثلاثاء 23 رمضان 1355 هـ / 08 ديسمبر 1936 م.

- " إنكار الذات في سبيل المصلحة العامة " حلقة 1، جريدة النور، عدد 35، د.ت.
- " هذه مقدمة الحرب تفتك بنا، فهل آن لنا أن نذجر ونرعوي ؟ " جريدة النور، عدد 26، الثلاثاء 14 ذي القعدة 1350هـ / 22 مارس 1932م.
- ²⁻ محمد صالح ناصر: مشايخي كما عرفتهم، ط1: دار الرّيام، الجزائر، 1429هـ / 2008م، ص 310-311.
- ³⁻ محمد صالح ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر، 1980، ص 39.
- ⁴⁻ محمد ناصر بوحجام: منهج الشيخ بيوض رحمه الله في الإصلاح والدعوة، ط1، نشر جمعية التراث، 1429هـ / 2008م، ص 184.
- ⁵⁻ محمد أحمد جهلان: الشيخ عدون والكتابة الصحفية (مدخل إلى مقالاته في صحف الشيخ أبي اليقظان من 1926 إلى 1938)، دورية الحياة العدد التاسع، نشر جمعية التراث، القرارة - غرداية- الجزائر، 1426هـ/2005م، ص 148.
- ⁶⁻ صالح محمد حمدي: " مثال رائع للانتصار على النفس "، مقال نشره في موقع فييكوس www.veecos.net، جويلية 2007م.